

سورية مملكة الصمت تتكلم

بين حكم البعث والربيع العربي..... نظام خارج التاريخ في سورية

ميس الكريدي

قام نظام عائلة الأسد منذ بداية استلام حافظ الأسد على القمع ومصادرة الحريات, حيث تسلط الأمن بأجهزته المتعددة على كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية, وعلى الصعيد السياسي عمل على إحكام قبضته من خلال سيطرة الحزب الواحد حزب البعث الحاكم, والذي بدوره انتهى إلى تحوله إلى جهاز ملحق بالجهاز الأمني.

كان النظام نظاما عسكريا يطوع القضايا الحساسة في المنطقة مثل القضية الفلسطينية لخدمة سياسته الخارجية, ويستخدمها كما استخدم الملف اللبناني ورقة بيده في التعاطي مع النظام الدولي, وفي الداخل يعمل تلك المؤسسة العسكرية الأمنية للقضاء على الحركة السياسية والاجتماعية, ويرفع بوجه شعبه ورقة العداة مع الصهيونية والامبريالية, بحيث لا صوت يعلو فوق صوت المعركة, وكان صارما في التعامل مع خصومه السياسيين بتصفيتهم وعزلهم وأدخلهم إلى السجون والمعتقلات, و تخوينهم, واتهامهم بالعمالة, ووهن نفسية الأمة العربية, و أرسى قواعد نظامه الاستبدادي من خلال عدد من الممارسات منها:

- 1- استفاد من تجربة سورية مع الانقلابات العسكرية فعمل على تبعية الجيش المطلقة لنظامه من خلال جعل الجيش جيشا عقانديا يتتقف بثقافة البعث وحدها, واستخدم الضباط الموالين له تماما في القيادات ونشر الأمن بين الضباط بحيث يكون الجيش تحت عين الأمن تماما.
- 2- عمل على هيمنة أمنية كاملة على المؤسسات المدنية والمنظمات الشعبية والنقابات المهنية, بحيث يكون المعيار في قيادة هذه المنظمات من القاعدة للقمة هو الولاء للنظام والرضى الأمني.
- 3- قمع الحريات والتعبير و خنق الصحافة وتبعيتها التامة للنظام والصحف الرسمية هي صحف النظام . والصحف التابعة لأحزاب الجبهة مراقبة أمنيا بحيث لا تتجاوز السقوف التي يحددها الأمن, بل ويزرع الجهاز الأمني أعوانه في تلك الصحف, خارج ذلك لم يتم تأسيس أي منبر صحفي, وحين سمح بتشكيل صحف خاصة أيضا مارست العقلية الأمنية تسلطها عليها, ودفعت أعوانها لتأسيس عدد منها وما عدا ذلك فإن الصحيفة تغلق, ويحاسب القانمون عليها. وأي منشورات تعتبر منشورات سرية ويحاسب من يوزعها ومن يمتلكها بالاعتقال والتعذيب.
- 4- عمل النظام على نشر ثقافة البعث الحاكم والمرتبط بشخص الأسد في المدارس من خلال نشاط المنظمات المسيطر عليها من قبله كا الطلائع والشبيبة واتحاد الطلبة, وكلها انحصرت مهامها في مراقبة أي نشاط من أي نوع خارج الإطار الأمني, واصبحت بمثابة اجهزة مخابرات رديفة.
- 5- اعتمد هذا النظام على تعزيز الشعور القومي والهروب من مواجهة المشكلات الداخلية بالتأكيد على الصراع مع الامبريالية, مع الغرب وأمريكا واللعب على ورقة العداة مع الصهيونية واسرائيل.
- 6- على الصعيد الاقتصادي سمح لأعوانه بنهب البلد واستغلال المناصب وانتشار الفساد والرشوة, وغض النظر عن هؤلاء لضمان ولاءاتهم للنظام.
- 7- بحكم السلطة الأمنية المطلقة الصلاحيات, اصبحت الأجهزة الأمنية شريك بالفساد وتتستر عليه مقابل مصالح مشتركة.

- 8- استخدم النظام عددا من أفراد أسرته الذين استباحو البلاد ونهبوها بدءا من رفعت الأسد وصولا لرامي مخلوف.
- 9- رفع النظام الشعارات الاشتراكية وتستر خلفها, بينما كانت العائلة والأجهزة الأمنية والمتنفذين ينهبون القطاع العام بالرضى والتراضي واقتسام موارد البلاد فيما بينهم.
- 10- استغل النظام حركة الإخوان المسلمين , ودمر مدينة حماة في بداية الثمانينات لإرساء الرعب الأبدي في نفوس السوريين جميعا, من خلال الوحشية المفرطة وإطلاق يد الجيش في المدينة بهمجية غير مسبوقه , ومن ثم عاد وقام بتصفية كل خصومه السياسيين وأودع قياداتهم في المعتقلات أو قام بتصفيتهم ليستقر نظام الخوف طوال عقود وتصبح سورية مملكة الصمت.
- 11- استطاع النظام استغلال الورقة اللبنانية بحيث كان لاعبا سياسيا في المنطقة , وكان هذا عاملا مهما لتثبيت وجوده فأمعن في قمع الداخل السوري.
- 12- اعتمد النظام سياسة مزدوجة في التعامل الدولي فلم يكن ما يعلن من مواقف يعبر عن طبيعة العلاقة مع هذه الدول, ومثال على ذلك: اتفاقية الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي السابق في حين كانت معظم تعاملاته مع الغرب. وكذلك العلاقة مع شاه إيران في الوقت الذي كانت إيران تتمتع بعلاقات مع اسرائيل, والأسد الأب كان يؤكد على عدائته ومقاومته لاسرائيل.
- 13- بالطريقة نفسها تعامل مع مسألة الإخوان المسلمين وإعلانه علمانية الدولة في حين كانت له علاقات مع إخوان مصر وفلسطين, وعلاقات مع جهات متطرفة عديدة استخدمها في كأوراق في العراق, ولبنان.
- 14- عمل النظام على إثارة النزعات الطائفية , وفككة بنية المجتمع السوري, والاعتماد على رجال دين موالين لنظامه يروجون لخطابه, ويعززون سياسته تلك. وكان دائما يلوح للمجتمع الدولي والأقليات في الداخل بشبح الإسلام السياسي.
- 15- خلق النشاط الثقافي والاجتماعي من خلال حصر المراكز الثقافية بحزب البعث, و كان يحاصر المنتديات والحركات الاجتماعية ويحاسب ويعتقل القائمين عليها, وآخر المنتديات التي أغلقت منتدى الأتاسي.
- 16- اعتمد سياسة غرض النظر عن بعض الحركات المتطرفة , مثل ظاهرة القبيسيات.
- 17- حرمان الأفراد من حقوقهم المدنية والسياسية والثقافية, ومصادرة أراضيهم ومنعهم من التملك, مما تسبب في نقمة كبيرة تجلت في انتفاضة عام 2004 التي راح ضحيتها حوالي ثلاثين شخصا.

كل هذه الممارسات أدت نتائجها في الوضع السوري, لا تظاهرات, لا حياة سياسية صحيحة, لا مؤسسات, لا منظمات غير حكومية تحمل مضمون اسمها.

عرض تاريخي سريع:

استلمت اللجنة العسكرية الحكم فعليا في سورية في انقلاب 1963 وبدأت المؤسسة العسكرية تمارس هيمنة على الدولة. و اللجنة العسكرية التي كان حافظ الأسد عضو فيها هي حكومة الظل. ما لبث أن تخلص من كافة أعضاء اللجنة وتفرد وحده بالبلاد في انقلابه على شركائه فيما سماه هو ونظامه الحركة التصحيحية.

أعلن عن قيام الجبهة الوطنية التقدمية كهيكل يجمع القوى السياسية, ولكنه وضع مادة في ميثاق الجبهة تؤكد على قيادة البعث لها, ومنع الأحزاب حتى الموجودة في الجبهة من النشاط السياسي في الجيش والمدارس بالقانون, ومن ثم عمل هذا النظام على استخدام الأشخاص الموالين له ضمن اعتبارات أمنية لتفقد هذه الجبهة اسمها وتتحول إلى حالة من التبعية الكاملة لنظام البعث.

انشقت الأحزاب السياسية التي دخلت الجبهة , فكانت موجودة في الجبهة, ولكن لها مقابل خارجها. وما كان يعني الأسد هو تزيين حكمه بهذه الأحزاب التي أفرغت من مضمونها النضالي وحكمت بالتبعية للنظام.

وأما مجموعة الأحزاب السياسية التي لم تدخل الجبهة الوطنية التقدمية فقد أصبحت أحزاب مهمشة تعيش في الظل, وهذه الأحزاب تم التنكيل بكوادرها و قواعدها وقياداتها وقضت في السجون سنوات طويلة.

حاولت الحركة السياسية المعارضة في سورية جمع كوادرها وتنظيم عملها وأسست التجمع الوطني الديمقراطي عام 1979 مؤلفا من مجموع الأحزاب خارج الجبهة ومجموعة مستقلين.

وفي عام 2005 تأسس إعلان دمشق لقوى التغيير الديمقراطي والذي ضم بين صفوفه إضافة لأحزاب موجودة في التجمع عددا من أحزاب الحركة الكردية والمعارضين المستقلين, ولجان إحياء المجتمع المدني , و الإخوان المسلمين.

ضرب النظام إعلان دمشق وقياداته وأودع قياداته في السجن, وعاد اشد تغولا ووحشية وقمعية.

لم يواجه النظام منذ زرع الخوف في نفوس الشعب السوري بعد الإجهاز على خصومه السياسيين صعوبات في إحكام قبضته, وحتى توريث بشار الأسد لحكم أبيه لم يلق معارضة تذكر, بل تطلع الشعب السوري إلى ذلك الشاب المتثقف كما توقعوا بثقافة حقوق الإنسان, بحكم علمه وشبابه, توسموا أن تكون هناك بدايات جديدة, خاصة من خلال تصريحاته ورفع شعارات إصلاحية وما كان يسمى ربيع دمشق, لكن سرعان ما عادت السلطة الأمنية لشراستها, وبدأ الأسد يقرب العائلة أكثر ويوزع المواقع الحساسة عليها, وبدأت تتعاظم سيطرتهم, ونشأت طبقة من رجال الأعمال الكبار بفضل هذا النفوذ العائلي منهم الرجل الشهير رامي مخلوف الذي ملكته قرابته مع الأسد قطاع الاتصالات الخلوية وهو من اهم القطاعات في سورية.

الأزمة الوحيدة التي واجهها الأسد الابن كانت بعد اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري, من خلال الضغط الدولي عليه, ولكن النظام استطاع أن يخرج من أزمته من خلال علاقاته مع إيران واستخدام ورقة حزب الله. و حرب 2006 التي أعادت الأسد لاعبا سياسيا في المنطقة بعد انتصار حزب الله على اسرائيل.

أسباب الاحتجاجات:

أسباب موضوعية:

- 1- تردي الوضع الاقتصادي, و تسلط طبقة رجال الأعمال الجدد عليها مدعومين من السلطة.
- 2- ضرب القطاع الزراعي, بحيث لم تعد المواسم والمحاصيل تغطي تكاليف الانتاج خاصة في الحبوب الحبوبية كالكمح والحمص.بالإضافة لازمة المياه وتعامل الدولة غير المدروس معها بمنطق دولة الفساد ومثال ذلك ردم آبار الفلاحين, في حين كان فساد الوزارات يهدر الاحتياطي المائي مثلا.
- 3- ضرب القطاع الصناعي من خلال الانفتاح غير المدروس بما يتناسب مع واقع الصناعة المحلية وعجز تلك الصناعة عن منافسة البضائع الصينية والتركية, ودون قوانين حماية لها.
- 4- الفساد والبطالة , والتعيينات الأمنية وانتشار الرشوة والمحسوبية, بحيث من الصعب أن ينجز المواطن معاملة رسمية بدون دفع أتوات هنا وهناك.
- 5- انتشار الفقر بشسكل واسع وخاصة في الأرياف, وهجرة الشباب للعمل في الأسواق المجاورة.
- 6- فساد القضاء وعدم ثقة المواطن السوري بهذا الجهاز المعين من قبل الأمن.

- 7- قمع الحريات و الاعتقالات التعسفية, ومنع حق حرية التعبير الي يكفلها الدستور.
8- حالة الظلم والقهر التي تجعل المواطن السوري يشعر أنه مراقب في كل مكان وكل دائرة, وكل شارع.

أسباب مباشرة:

- 1- الربيع العربي والثورات الناجزة في تونس ومصر خلقت حافزا ورغبة لدى الشباب بانجاز ثورتهم الخاصة.
2- اعتقال اطفال درعا والتعذيب الذي طبق عليهم ورفض جهاز الامن وساطة الوجهاء وإهانتهم مما فجر الجرح العميق من حالة الذل والظلم الطويلة.

القوى السياسية والثورة:

لم يكن خروج الحركة الاحتجاجية من المساجد عاملا سلبيا بالنسبة للسوريين المعارضين لنظام الأسد, لأن الجميع في سورية يعلمون انه لا يوجد مكان للتجمع في سورية غير دور العبادة, فهذا ممنوع, لذلك خرج الناس من المساجد بمختلف الأطياف السياسية, فقد كانت الحاجة للتجمع ومكانه هي السبب من المسجد خرج الشيعي والمسلم والمسيحي و الكردي والدرزي وكل من هو مقتنع بضرورة مواجهة هذا النظام.

نزل الشباب في مظاهرات سلمية وشاركت كوادر كافة الأحزاب كحامل وطلبة ثورية, وكان أولئك الذين قضوا في السجون سنوات طويلة من اليسار في طليعة قيادة الجماهير مثل مانديلا سورية رياض الترك, ومشعل التمو الذي تم اغتياله في القامشلي, في هذه الأحداث.

وسرعان ما أخذت كوادر الأحزاب تعلن موافقا ضد قياداتها التي لم تتمكن من مجارة الحراك الثوري نتيجة هزال مؤسساتها في ظل تلك المؤسسة الأمنية الطاغية مدة أربعين عاما, خاصة وأن واقع الأحزاب في سورية تعرض لمخاضات عديدة منذ تشكل الجبهة الوطنية التقدمية والأحزاب انقسمت رفضا لتسلط حزب البعث عليها, أما الأحزاب التي بقيت في الجبهة فأصبحت جزء من السلطة حتى أن عددا من قياداتها كانت تفاوض المعارضة في الانتفاضة كطرف ممثل للسلطة وزار هيئة التنسيق بهذه الصفة مثل حنين النمر الأمين الأول للحزب الشيعي السوري جناح يوسف فيصل. وأما الأحزاب خارج الجبهة فهي أحزاب يتم التنكيل بكوادرها وتمنع من التحرك السياسي باستثناء حزب وحدة الشيعيين ((قدري جميل)) الذي كان يتمتع بكافة امتيازات أحزاب الجبهة وهو خارجها.

ما ينطبق على القيادات لا ينطبق على القواعد حيث نزل الجميع بشعاراتهم المدنية للشوارع وفرضوا حضورا لافتا واحتراما لذلك لا يمكن اختزال الحزب برجل أو اثنين أسوة بمنطق السلطة, وهذا الموقف كان محركا للكوادر الحزبية المعارضة قبل غيرها لإحلال الديمقراطية منهاجا جديدا في الحياة السياسية. وللامانة التاريخية فإنه لا يأن يكون هناك عمل علني مع نظام الموت في دمشق وكل حزب يريد أن ينزل للشارع قيادة وكوادرا عليه أن ينسحب للعمل السري وهناك أحزاب معارضة حقيقية قامت بذلك. زكانت النتيجة الملاحقة الدائمة لكوادرها والقتل والتنكيل والتعذيب والضغط على أهلهم وأسرهم. ولكن الجماهير تلتف حول هذه الكوادر وتثق بها وتغادر حتى من الأحزاب الأخرى بعد أن شعرت بالخيبة السياسية في مواقف قياداتها. وإذا كان اليسار كتشكيلات حزبية غير موجود بالمعنى الدقيق فلأن معظم الرموز المحترمة فيه رفضت العمل تحت لواء أحزاب محكومة بالرضى الأمني واختارت مصانرها بصفة مستقلة وقضت ما قضت في سجون الأسد, وأعتقد مع بداية المرحلة الانتقالية في سورية ستعيد هذه الكوادر التي عاشت نضالها الثوري بالمعنى الدقيق إفرار حركتها الحضارية وأحزابها السياسية, لأن كل ما نشأ في ظل نظام مثل نظام الأسد طاله الفساد وتتقف بثقافة النظام الاستبدادية ذاتها, و الذي كان ثقافة عامة, واني أؤكد أن هذا النظام قادر على تشويه أي عمل علني مهما كان نبيلًا بالهدف والبيانات والخطة والاستراتيجية, لأنه لا يقبل بوجود ناشط على الحياد, يطالبه بالترهيب والقهر بمواقف لصالحه.

الحراك الثوري والمرأة:

شاركت المرأة بشكل طبيعي في الحراك الثوري, خاصة وانه في درعا كان يتضمن مطالبة أم بطفلها, ونتيجة القسوة المفرطة في القمع واستخدام الرصاص في تفريق المظاهرات, ووقوع الضحايا زج مدنا كاملة في الحراك, نقمة على دماء أبنائها.

بدأت المدن تتعاطف مع بعضها والمرأة جزء لا يتجزأ من الحالة فأخذت النساء تخرج في تظاهرات نسائية منظمة شهدها ريف دمشق في حرستا ودوما وفي برزة في دمشق, وطبعا كانت الطبيبات حكما جزءا من تحرك الاطباء للاسعاف والمشافي الميدانية خاصة مع تنامي الحاجة لهم بازدياد أعداد الجرحى يوميا, وخوف الناس من اختطافهم في سيارات الاسعاف, تعاضمت الحاجة للنساء وكن يمارسن دورا تلقائيا في مناطق عديدة من خلال محاولات تخليص الشباب من يد الأمن وسحب الجرحى من المظاهرات, ولكن طبعا برزت أسماء نسائية كثيرة في الحركة السياسية والمنظمة في الثورة.

لم تكن المرأة في سورية يوما خارج قوس والسجل النسائي حافل بالأسماء لكنها كانت تقتصر على نساء الحركات اليسارية غالبا, اما اليوم فقد دخلت المرأة من كافة المستويات الاجتماعية, المعركة مع النظام واعتقلت اعداد كبيرة من النساء. وطبعا قتلت بالرصاص الذي لا يميز بين طفل ورجل وامرأة.

إن المدن المتحركة في سورية اعتمدت بشكل اساسي على الشباب نعم لكن الصراع الذي تحول بين الشعب والنظام على صراع وجود أعلن الحرب على الجميع مما دفع الجميع للوقوف في وجهه وكان نصيب الطفولة من القتل والانتهاك الكثير, لذلك فأعتقد أنها ثورة شباب لأنها ثورة على الظلم وعلى البنى الاجتماعية الراكدة لكنها بالمقابل جعلت الجميع في المواجهة, فشارك الكل بها.

مطالب الثورة:

بدأت الثورة في درعا مطالبة بالإصلاح ومعاقبة من قام باعتقال الأطفال, ولكن إمعان الأسد بالاستخفاف في مطالب الناس خاصة بعد خطابه الأول وتصاعد الاحتجاج نتيجة سقوط عدد من الضحايا, وقطع الطرقات ومنع المواد الرئيسية الغذائية عنهم, ومنع الخدمات الضرورية وقطع الاتصالات, كل هذا أدى ظغلي انتقال الاحتجاجات إلى مناطق أخرى وبدا ريف دمشق بالتحرك لملافاة الاحتجاجات في درعا, ومنها لباقي المدن السورية, أخذ الاسد يستقبل عددا من الوفود الشعبية في محاولة لتاطير مطالبهم ببعض المطالب الخدمية ومحاولة استمالة الوجهاء, لكن اللافت للنظر أن المطالب كانت واضحة ومتفحة فيما بينها وتخلص في بدايات الحركة الثورية, بمايلي:

- 1- إلغاء المادة الثامنة من الدستور
- 2- إيقاف العمل بقانون الطوارئ
- 3- الإفراج عن كافة معتقلي الرأي في سورية, وطي ملف الاعتقال السياسي.
- 4- رفع سلطة الامن عن الشعب, وسيادة القانون.
- 5- فصل السلطات التنفيذي والتشريعية, واستقلال القضاء.
- 6- صدور قانون احزاب يسمح بالمشاركة في الحياة السياسية.

لكن الاسد الذي وعد بالإصلاح لم يستجب مع هذه المطالب, بل امعنت قوى الامن السوري بالظلم والقهر والاعتقالات, والقتل, وتكسير المنازل, ماصعد الحركات الاحتجاجية, فانتقلت لحماية وحمص, ودير الزور, و قرر الأسد الاستعانة بالجيش ونزلت الدبابات لقمع التظاهر السلمي.

مع تصاعد الازمة في سورية, بدأت المطالب تتوسع واضطر السياسيون لمواكبة الشارع الثائر الذي رفع مطالبه على إسقاط نظام الاسد, وبدأت الحركة السياسية والقوى الديمقراطية في سورية التي ترفع شعار لا التغيير الوطني الديمقراطي في سورية, إلى التوافق مع الشارع ورفعت بدورها شعار إسقاط النظام.

هيئة التنسيق الوطنية في سورية:

تشكلت الهيئة من عدد من الاحزاب السياسية الموجودة في داخل سورية, وعدد من الشخصيات المعارضة المستقلة, وشباب يمثلون الحراك الثوري في سورية, وكان عملها شاقا جدا لوجودها في الداخل السوري, حيث النظام لايقبل بالقوى السياسية حتى على الحياد كما سبق وذكرت, والأسد كان واضحا في خطايه من ليس معنا فهو ضدنا, ورفعت الهيئة شعارها((لا للعنف , لا لطائفية, لا للتدخل العسكري الخارجي)).

وعندما بدأ الحديث عن حوار وطني, او حوار مع نظام الأسد اتفقت القوى السياسية, ان لا حوار وإنما تفاوض على المرحلة الانتقالية, وتسليم السلطة بعد أن سقط على أرض سورية حوالي عشرة آلاف ضحية, وحددت شروطها من أجل التفاوض بمايلي:

- 1- وقف العنف وهدر الدم السوري.
- 2- سحب الجيش من المدن السورية.
- 3- الإفراج عن كافة المعتقلين على خلفية الأحداث في سورية .
- 4- السماح بالتظاهر السلمي...إلى آخر ذلك من المطالب التي وردت في المبادرات السياسية التي توجهت للنظام والتي لم يلتزم بأي منها, خاصة وأنه يدرك أنها ستكون إعلانا نهائيا لسقوطه حيث سحب الجيش وإيقاف العنف كفيلا بنزول ملايين السوريين للشوارع, وإعلانهم المطلق عن حركتهم السلمية باعتصامات وتظاهرات سلمية تحمل مطالبها السياسية والثورية المحقة.واليوم بعد مرور اكثر من عام على الانتفاضة في سورية يرفض النظام كل المساعي لحل سياسي, ويدفع بالبلاد نحو هاوية العنف, والقوى السياسية والمدنية , وخاصة نحن كشباب مهتمين بمستقبل سورية نعمل على توحيد الرؤية السياسية وتفعيل النشاط المدني , وتدريب الشباب على المقاومة المدنية, ونشر ثقافة الديمقراطية وقبول الآخر وضمان حقوق الجميع بحيث تكون سورية لكل أبنائها, خاصة وأن بلاد هم عاشت أكثر من أربعين عاما من القمع و منع العمل السياسي والمدني, حتى سميت مملكة الصمت.